موسى لقبال

ملحمة أبي الفضل

جعفر بن فلاح بن أبي مرزوق

شخصيات لها تاريخ

المؤسسة الوطنية للكتاب
ENTREPRISE NATIONALE DU LIVRE

موسى لقبال

ملحمة أبي الفضل

جعفر بن فلاح بن أبي مرزوق

المؤسسة الوطنية للكتاب
3. شارع زيروت يوسف
الجزائر

© الرقم التسلسلي : 09 . 01 . 89 . 182
المؤسسة الوطنية للكتاب
الجزائر 1990

1 ـ الإستراتيجية الإسماعيلية :

رسمت الحركة الإسماعيلية منذ ظهورها استراتيجية محددة هدفها الرئيسي إسقاط نظام الخلافة العباسية في بغداد وفي العالم الإسلامي، لإحلال نظام الخلافة العلوية الفاطمية محلها، في الإشراف السياسي والروحي على جميع المسلمين في المغرب وفي المشرق وتوابعهما.

واختيار قرية سلمية، بجوار حمص في الشام أي قرب بلاد العراق مركز ثقل العباسيين، دار هجرة وقرار للإمام المستور في ذات الله من آل البيت، يدخل في إطار هذه السياسة المرسومة التي لم ينل منها ماحصل من إنكشاف أمر الحركة الإسماعيلية، وأمامها المستور، الذى اضطر قبل القبض عليه من طرف العباسيين الى مغادرة سلمية وبيئة المشرق كلها، الى بلاد المغرب العربي الإسلامي، حيث نضجت حركة الدعوة الإسماعيلية وأعلنت خلافة العلويين الفاطميين في رقادة عاصمة أمراء بني الأغلب أتباع العباسيين في إفريقية.

فهذا عبيد الله بن محمد الحبيب، أول أئمة الظهور، وفاتحة خلافة الفاطميين في بلاد المغرب، يقول لأحد أنصاره في مدينة الرملة، بفلسطين العربية المسلمة، عندما تملكه الفزع على مصير الإمام، من عملاء العباسيين : « طب نفسا

وقر عينا، فو الذى نفسي بيده، لا وصلوا إلي أبدا، ولنملكنّ أنا وولدي نواصي ولد العباس، ولتدوسنّ خيولي بطونهم.»

وهذا القول مؤشر على وجود خطة ثابتة، ضد نظام العباسيين في المشرق قاعدة تنفيذها سلمية بالشام، لولا ما جرى من الأحداث.

ويعضد هذا القول سياسة عبيد الله المهدي، وتصرفاته بعد إعلان الخلافة الفاطمية في رقادة. فقد دأب على إرسال الحملات العسكرية ضد برقه، ومصر، قاعدة الدولة الإخشيدية التابعة سياسيا وروحيا لنظام العباسيين. وقد تولى قيادة بعض هذه الحملات ولي عهده حجة المسلمين، محمد القائم الذى ناضل ضد ولاة العباسيين بالقلم، وبالسيف، وصادفته أهوال، ولقي الهزائم المنكرة، وقوبل بالتجريح، وبالسخرية وبالهجو المقذع، من طرف شعراء العباسيين، ومع ذلك قال ردا على أعدائه : « والله، لا أزال حتى أملك صدر الطائر ورأسه أن قدرت وإلاّ أهلك دونه.»

ورغم أن المهدي كان يعلم صعوبة الأمر، في هذه الفترة المبكرة التي كانت فيها أوضاع العباسيين مستقرة نسبيا، بالقياس الى أوضاع الفاطميين المضطربة؛ فإنه لم يشأ أن يحيد عن الخط السياسي المرسوم، أو يتناساه، بدافع العزم الأكيد، والحزم الرشيد.

وأوضح مايبين التزام المهدي بالعمل في الإطار المرسوم، حوار جرى بينه وبين إبنه القائم بأمر الله، قال القائم

لأبيه : « ياأمير المؤمنين قد خوّلك الله وملّكك وأعطاك من الدنيا ما فيه سعة وكفاية فعلام تغم نفسك، وتشغل صدرك، دع هذا حتى يأتي الله به عفوا ؟ ».

فرد المهدي على إبنه ردّا حازما وعمليا؛ بأن قبض يده اليسرى وقال : « نعم ! ! هذا المغرب في قبضتي هذه، وبسط اليمنى وقال : « ولكن كفي هذه من المشرق صفر ! ! إن ثقل عليك ما أمرتك به خرجت له بنفسي ! ».

فقال القائم وقد اقتنع : « بل أنفذ لما أمرت به ياأمير المؤمنين، وأسارع إليه. »

وفي أول صلاة جمعة ببلاد المغرب، بعد إعلان الخلافة الفاطمية جاء الأمر بالدعوة لأمير المؤمنين الجديد بصيغة معبرة، وملتزمة بالخط السياسي، ونصها : « اللهم فانصره على أعدائك المارقين، وافتح مشارق الأرض ومغاربها كما وعدته، وأيده على العصاة والضالين ! »

والاهتمام ببرقه، وتركيز النشاط ضدها، واتخاذها قاعدة انطلاق الى مصر، للنضال ضد العباسيين، كان خطا سياسيا ثابتا، ولا تماثلها في الأهمية للفاطميين إلا قاعدتا طنجة وسبته، باب الأندلس للنضال ضد المرولنية الأمويين السنة المعادين للفاطميين، ثم قاعدتا صقلية وقلورية (كلابريا) باب أوروبا، للنشاط المتعدد الجوانب ضد أعداء الإسلام والمسلمين رواد الصليبية، وهم الروم البيزنطيون.

وفي مجال المقارنة بين هذه القواعد، التي

راهن عليها الفاطميون، لم تنجح قواعد صقلية وقلورية، وطنجة وسبتة، في الأداء المطلوب. هذا بينما نجحت قاعدة برقة في أداء دورها كاملا غير منقوص، منذ بداية عهد المهدي، وحتى نجاح جهود الفاطميين في العودة المجيدة الى المشرق، والعبور الى مصر بوابة بلاد الشام، التي هي على مشارف مركز ثقل العباسيين في العراق، تم ذلك في عهد أبي تميم المعز لدين الله، رابع خلفاء الدور المغربي للخلافة الفاطمية، وأول حلفاء الدور المصري الشامي لهذه الخلافة العتيدة التي من بين ميزاتها الظاهرة : ربط المغرب بالمشرق برباط السياسة والمذهبية، والإستراتيجية العليا أيضا. وقد يصح هذا درسا بليغا للقائمين على ضبط السياسات في دول المغرب والمشرق في عصرنا.

لقد كان المعز لدين الله أشد التزاما بالخطة الأصلية للخلافة، وأوفر نشاطا في العمل المادي والدعائي ضد العباسيين، ففضلا عن إرسال الدعاة لتخذيل الأنصار، واستفساد الولاة، وتهيئة التربة للبذر، أرسل نجدة لمسلمي جزيرة اقريطش، التابعين للإخشديين، كي يظهرهم وحماتهم العباسيين بمظهر العاجزين عن حماية الإسلام والمسلمين في وجه الروم المتكالبين، أما عندما استقبل رسول ملك الروم قسطنطين السابع في المنصورية بإفريقية فقد أوعز اليه بسر خطير لخصه في قوله له : « لتدخلّن عليّ وأنا بمصر مالكا لها. »

وتدخل المعز لدين الله في شؤون الحجاز تمهيدا لفرض الحماية على الحرمين الشريفين، وهي ميزة تتعلق بها كل خلافة إسلامية شرعية.

فقد أرسل يتوسط بين الإشراف المتنازعين في مكة، من بني الحسن وبني جعفر بن أبي طالب، وتكفل بدفع ديات القتلى من الفريقين، وكان معظمهم من بني الحسن « فصار ذلك جميلا عند بني الحسن للمعز » قابلوه بإعلان الولاء والدعوة له في مكة عقب فتح مصر.

2 ـ كتامة والاشراف على التطبيق :

أما أداة التنفيذ الحقيقية لمشاريع الخلافة الفاطمية في هذا العهد، فعصبية الدولة، وحزبها، ورجالاتها التاريخيون من حلف كتامة وتوابعها.

أولئك الذين أقاموا كيان الخلافة الفاطمية بسواعدهم، وحملوا أثقالها على كواهلهم، وضمنوا الإستمرار، وأمدوها بالقوة وبالحيوية لتحقيق أهدافها المرحلية في بلد المغرب، فيما سمي السيادة الاقليمية. وهم أيضا الذين ضمنوا لنفوذها السياسي والروحي الذيوع والإنتشار، والإستقرار في مصر وفي بلاد الشام ... فكانوا بحق كرفيق النصر والهزيمة، وككلب الحراسة، وكرواد النهضة العلوية، والوحدة الإقليمية مغربيا والشاملة عربيا. ولعل ما حدث في زرالدة بالجزائر، وترجم

عمليا في مراكش، إرهاص بما سنستقبله من جمع الشمل العربي من المحيط الى الخليج، وفي ذلك وفاء بحق السلف وتمجيد لجهودهم المخلصة في خدمة العروبة والإسلام.

وسياسة المعز لدين الله في ميدان المشرق، بعد احتواء المغرب، كان يشرحها بوضوح لرجاله وعصبيته من كتامة كلما وجد الى ذلك سبيلا أو فرصة. يقول : « واعلموا أنكم إذا لزمتم ما آمركم به رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم. » غير أن شعوره بعدم اكتمال الإستعداد صرفه عن الإستجابة بسرعة لحماس الأنصار، ودعوة الدعاة، بأن يبدأ في الزحف ضد مصر دون تأخير قائلا لهؤلاء : « إننا لم نتخلف عن ذلك إلاّ انتظارا للمدة التي وعدنا الله الظهور فيها ولو حضرت ما تخلفنا. »

وقد تبين للمعز لدين الله أن نجاح هذه الإستراتيجية رهين بتنقية الأجواء الداخلية وبإزالة ما في نفوس كتامة من غيظ وتحفظ، وأيضا بحشد كل القوى المادية والمعنوية، وبتربية جيل جديد من عصبية الدولة يكون جديرا بأن يمثل رجاله الدور الإيجابي في المشرق، نظير الذى أشرف على تنفيذه أسلافهم في بلاد المغرب، الإخوان عروبة وحباسة، والقريبان أبو زاكي وماكنون، وهرون بن يونس، شيخ المشائخ، وأبو مدين بن فروخ اللهيصى وعبد الله بن يخلف، وجبر بن القاسم وعسلوج بن الحسن الدنهاجى، وابن عطاء الله، وصولة، وأبو الفضل جعفر بن فلاح بن أبى مرزوق.

وإذا كان هؤلاء هم رجال الجيل الأول من كتامة الذين أشرفوا على حركة الدعوة، وعلى حروب التوسع، وانغمسوا فيما جرى من فتن وثوارت داخلية في بلاد المغرب، بحيث لم يتجاوز نشاطهم ما وراء برقة شرقا، وطنجة غربا، حتى أفنتهم الحروب، واستهلكتهم الأحداث، فإن جعفر ابن فلاح رغم أنه عاصر الأحداث في الساحة المغربية مثلهم، فقد قدر له أن يستمر في الأداء بعدهم في ساحات وادي النيل، وبردى والشامات. ومن هذه الناحية يعتبر عنوان جيل جديد من شباب كتامة في العصر الذهبي الجديد، عصر المعز لدين الله.

هذا الخليفة الذي أدرك جيدا بأن كتامة امتحنت في عصري المهدي والقائم، وزالت عنها الصدارة وتخطتها المسؤولية العليا الى عناصر أخرى من مكناسة، وطبقة الفتيان الصقالبة، حتى خمل ذكرها ونشأ شبابها مهمشا عن السلطة، بعيدا عن مراكز القرار، في الدولة.

أراد أن يعيد الوضع سيرته الأولى مع عصبية الدولة التاريخية حفظا للتوازن بين العناصر الموالية للنظام، لذلك عين شباب كتامة على المسؤوليات، وزودهم بتوجيهاته، ولم يشترط عليهم غير رعاية حقوقه كخليفة، وكإمام مطاع، يجب اطلاعه على كل ما يجري : « طالعنا بأمورك ماعسى أن تريد العمل به، قبل أن تعمله فما أتاك منه فامض على تأمرك به تكن على سبيل نجاة وسلامة وراحة وتزول الحجة عندك. »

وإذا صرفنا النظر عما بذله المعز من جهود جبارة لتوجيه

كتامة، وتربية شبابها، وتجنيدهم معنويا وماديا لخدمة أهداف الدولة المستقبلية، في بيئة المشرق، مثل قوله وهو يخاطبهم : « أنتم البنون والإخوة والأقربون ما يعد لكم عندي أحد، ولا يبلغ مبلغكم من قلبي بشر. »

وقوله أيضا : « ما نصر الله وليا من أوليائه قبلنا بمثل نصركم لنا، على ذلك مضى أولكم، وعليه أنتم. » وقوله يمدحهم أمام غيرهم : « وهؤلاء كتامة أجدادهم مع أجدادنا، وآباؤهم مع آبائنا وهم معنا، وكذلك يكون أعقابهم مع أعقابنا الى يوم الدين. »

إذا صرفنا النظر عن جهوده هذه لخلق مناخ جديد، ولبث روح جديدة بين كتامة عصره، فإن معاملته لهم على غير الرسوم المألوفة، هي لمزيد من أحكام الحصار، وأيضا ليشعرهم بأنهم في عصره على وضعهم الإمتيازى تاريخيا وفي هذا الاطار دعا بعضهم الى الإجتماع به في يوم بارد شات وأدخلهم على نفسه من غير الباب الذى جرى الرسم بدخول العامة منه على الخلفاء، وكان على هيئة متواضعة، ومنصرفا الى كتابة رسائل، الى الدعاة في المشرق، والى الولاة في المغرب يجيبهم فيها بنفسه على مشاكل الدعوة والحكم.

وكان هدفه من هذا اللقاء، والحركة التمثيلية أن يفهمهم بأنه عندما يحتجب عنهم لاينصرف إلا لتصريف شؤون الدولة، ولما يحفظ وحدة الأمة، والدعوة، واستمرار النظام، مع حياة زهدية كاملة، في مباهج الدنيا، وفي ملذات الحياة، وعلى

ذلك ينبغي أن يسير رجال الدولة والقائمون على حفظها، والمسؤولون على مصائرها، حتى تدرك أهدافها المرسومة في المشرق، كما أدركتها في بلاد المغرب.

إن جهود المعز، وأحاديثه الخاصة، واطراءه لأخلاق كتامة، وتركيزه على العلاقات التاريخية بينهم وبين أسلافه، قد أثمرت في نهاية الأمر، وبدأت طلائع قوة جديدة، وجيل جديد، يعتز بماضي أسلافه، قد وطد العزم على الإستمرار في ترسم خطاه، دعما لمسيرة الدولة الفاطمية، لتدرك غايتها في السيادة العليا على مستوى العالم الاسلامي، مغربه ومشرقه.

وعنوان هذا المد الجديد الذي أزهر به الأمل، ونضجت به ثمار الدعوة والسياسة وحركة التوسيع في مصر باب المشرق العباسي هو ابو الفضل جعفر بن فلاح... مساعد جوهر الصقلي في قيادة أضخم حملة عسكرية ضد مصر، لم تكن الأولى بل كانت خاتمة الجهود العسكرية المظفرة.

فمن هو جعفر؟ ؟

3 ـ الإسم والنسب :

أغلب المصادر التاريخية تشير الى هذا القائد باسم جعفر بن فلاح الكتامي، ويضيف بعضها اليه كنية : أبي علي، إشارة الى أحد أبنائه بهذا الإسم، كان له دور مشهود في مصر

والشام في عصر الحاكم بأمر الله، كما عرف القائد بكنية أبي الفضل، إشارة الى إبنه الفضل الذى توفي في القاهرة المعزية وحضر جنازته كبار رجال الدولة بمن فيهم جوهر الصقلي، قائد حملة فتح مصر ومفوض الخليفة المعز لدين الله في شؤون الحكم.

وتشير بعض النصوص الى جد القائد جعفر، وهو أبو مرزوق فيكون إسمه (أبو الفضل، أو أبو علي جعفر بن فلاح بن أبي مزروق الكتامي).

وهذا الوصف الأخير يطرح مشكلة نسبة هذا القائد الكبير الى أحد فروع كتامة.

فنحن رغم استشارة كثير من النصوص لم نعثر على نسبة خاصة تميز هذا القائد... مثلما لاحظنا ذلك مع غيره من قادة كتامة المنسوبين الى عشائرهم الخاصة، وذلك كأبي مدين بن فروخ اللهيصي وأبي زاكي الأجاني، وعروبة الملوسي، وأبي القاسم السكتانى، وجبر بن القاسم المسالتي. وكلهم كتاميون مثل جعفر، وابن يخلف اللذين جاءت نسبتهما عامة الى كتامة دون تمييز، وهذه النسبة العامة تشيع في الدور المصري للخلافة الفاطمية، وقد يزداد الأمر تعقيدا عندما يكتفى المؤرخون بلقب المغربي الذى هو أكثر غموضا وعمومية.

ويبدو أن نسبة جعفر بن فلاح الخاصة تبقى لغزا محيرا، غير أنه لا يستبعد أن يكون من بين عناصر دنهاجة أو مسالته، الذين هاجروا الى مصر، بأعداد ضخمة، وعرف من بينهم قادة كثيرون، عاصروا عهد الحاكم بأمر الله، واستأصل منهم جماعة في ظروف غامضة، ومن بين هؤلاء أحد أبناء جعفر بن فلاح الملقب بذى الوزارتين، وهو علي بن جعفر.

4 ـ نشأته وحياته :

لم تفدنا النصوص بما ينير السبيل حول ميلاد جعفر، وحول نشأته، وحياته ودوره عندما ظهرت الحركة الإسماعيلية في القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادي، في منطقة كتامة وفي الزاب وإفريقية. كما لم تشر الى أي شيء عن نشاطه في هذه المرحلة، فلم تذكر النصوص إسمه ضمن قادة كتامة وصنهاجة في بلاد المغرب الذين كانوا الى جوار جوهر الصقلي، في حملته الكبرى، ضد زناتة وصنائع الأمويين في الأندلس، التي وصل بها الى أحواز طنجة وسبتة سنة 347هـ / 958م. هذا بينما ذكرت النصوص إسم زيري بن مناد الصنهاجي، وأشادت بدوره القيادي في الحملة، وفي التضييق على مدينة فاس الإدريسية. فهل أن جعفر ابن فلاح لم يقم فعلا بأي دور قيادي لقائده الدولة في هذه المرحلة، قبل اشتراكه فعليا كمساعد رئيسي لجوهر في قيادة الحملة الكبرى ضد مصر الاخشيدية 358 هـ / 968م.

هذا رغم أن الفاصل الزمني بين الحملتين يبدو قصيرا نسبيا (11 سنة). فقد يكون جعفر مازال بعد لم يشتد عوده. ولم تكتشف جوانب شخصيته القيادية إلا تدريجيا، أي بعد فترة امتدت إحدى عشرة سنة هي الفارق الزمني بين الحملتين.

وقد يكون الأمر على خلاف ذلك، وإنما أهملت النصوص ذكر إسمه ودوره قصدا، تبعا للسياسة الفاطمية المرسومة منذ عصر طويل، التي تعتم على دور القادة المحليين حتى لايثيروا مشاكل للدولة بالإستناد الى قوة العصبية، وفي المقابل، ودون خشية تركز على إظهار قيمة القادة الآخرين من طبقة الفتيان العتقاء، عديمي الأصول. ومن هؤلاء جوهر الصقلي مولى المنعز لدين الله.

وكان المعز لدين الله قد حرص على خضوع الجميع له، وإضفاء كل الأهمية على شخصه، حتى أمر القادة، بإطاعته، وبالترجل له، دون استثناء، كان هذا على الأقل في الدور المغربي للخلافة الفاطمية. أمّا في مصر فقد تغير الوضع قليلا على نحو سيساعد على ظهور القادة المحليين الآخرين كمشرفين وكرؤساء بالنسبة لبني جنسهم، ولمجموعاتهم القبلية، وهكذا نجد جعفر ابن فلاح يظهر قائدا لبني قومه كتامة في مصر وهم الذين نصروه والتفوا حوله، وكانوا رهن إشارته، أسوة بغيره من قادة العشائر الأخرى، مثل صنهاجة، ومصمودة وزويلة.

وفي الحق أن جعفرا بن فلاح كان من بين قادة الدولة في دورها المغربي، لكنه لم يلق في زحمة الأحداث والصراعات القبلية خاصة بين صنهاجة وكتامة، ما يستحقه من تقدير وأشهار. ويبدو هذا منطقيا مع سير الأحداث، إذ كيف يعقل أن يظهر الرجل فجأة في قمة الميدان السياسي

والعسكري بجوار جوهر لقيادة أضخم حملة عسكرية مصبرية دون أن يكون المعز لدين الله قد جرّبه من قبل أو عرف قدره ومقداره، وتفوقه، كعنوان على جيل جديد من كتامة، أبناء الرعيل الأول ؟

5 ـ جعفر والمسؤولية في الدور المغربي :

ويدل على ظهور جعفر في هذا الميدان، جملة من المؤشرات في مقدمتها :

أ) أن إبن فلاح كان أحد الجعفرين اللذين مدحهما إبن هاني شاعر المعز لدين الله.

يقول عن جعفر بن علي بن حمدون، أمير المسيلة والزاب :

ويا ملك الزاب الرفيع عماده
بقيت لجمع المجد وهو فريق
على ملك الزاب السلام مرّددا
وريحان مسك بالسلام فتيق

أما عن جعفر بن فلاح فيقول :

كانت مسألة الركبان تخبرني
عن جعفر بن فلاح أطيب الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت

أذني بأحسن مما قد رأى بصري

وبما أن هانىء متنبىء الغرب، قد قتل غيلة في برقه أثر مجلس أنس صاحب، أي لم يقدر له الالتقاء بابن فلاح في مصر، لأنه لم يصلها، فضلا عن بلاد الشام، فإن المؤكد على كل حال أن يكون مدحه له قد تم في فترة مبكرة في بلاد المغرب ويكون ذلك دليلا على ظهوره في الميدان السياسي والعسكري كشخصية قوية، وموجهة، في عصر المعز لدين الله، أي قبل أن يشترك في المجهود الحربي في ميدان مصر وبلاد الشام.

ومن المؤكد، حسب إشارة ابن هانىء الصريحة، أن يكون اللقاء بين القائد جعفر، والشاعر قد تم في أرض المغرب الإسلامي.

وما أشار إليه ابن هانىء عن قيمة جعفر وشهرته، أكدتها بعض النصوص التي أوضحت بأن ابن فلاح لم يكن فقط قائدا عسكريا ماهرا، وإنما كان أيضا أديبا وشاعرا قديرا له عواطف رقيقة خاصة تجاه أهل البيت الشريف، وعنصر الإشراف، حتى أن عدوه الحسن بن أحمد القرمطى بعد أن قتله رثاه وبكاه تأثرا واعترافا بقيمته بقوله :

يا منزلا عبث الزمان بأهله
فأبادهم بتفرق لايجمع
أين الذين عهدتهم بك مرة
كان الزمان بهم يضر وينفع

ب) إن مركز جعفر بن فلاح في قيادة الحملة ضد مصر كان يلي مباشرة مركز القائد الأعلى وهو جوهر الكاتب الصقلي، وهذا يشعر بأنه كان بمثابة رئيس أركان الحملة حسب المصطلح العسكرى الحديث، ولهذا السبب لم يظهر غيره بالإسم في المهمات الكبرى، ومن ذلك اختيار جوهر له ليقوم بأكبر دور ضد عناصر المقاومة في مصر، من بقايا أتباع كافور الإخشيدي (الكافورية، وأتباع الإخشيد – الإخشيدية)، الذين تجمعوا لمقاومة عبور رجال الحملة الى الجانب الآخر من نهر النيل.

وقد اعترف القائد جوهر بأهمية دوره في الحملة، وبنجاعته ضد المقاومة، ولمّح الى دواعي اختيار المعز له دون غيره من قادة كتامة أو صنهاجة، أو الفتيان الصقالبة، عندما خاطبه وقت الشدة « لهذا اليوم أرادك المعز لدين الله. »

ج) وقد انتدب جعفر مرة أخرى لمهمة استثنائية وخطيرة، تتمثل في تتبع بقايا عناصر المقاومة في بلاد الشام، والعمل على تصفيتهم، وضم البلاد الى دائرة النفوذ الفاطمي، وهذا يعني أن جوهر يثق في قدرته على فتح قطر متسع كبلاد الشام، وعلى ضمه، والوقوف حارسا أمينا له ولمصر، من بقايا عناصر السلطة القديمة، ومن أطماع القرامطة في البحرين، وتطلعات العباسيين، ومن إغارات الروم البيزنطيين كذلك.

د) ورغم أن المنافسة بين القائدين كانت على أشدها، وكانت أحد العوامل لترشيح جعفر لفتح بلاد الشام، إبعادا

له عن ميدان مصر وأملا في أن يكسر ويحطم كبرياؤه، فإن جوهر حرص مع ذلك على إرضاء مساعده والتلطف معه ومشاركته وجدانيا فيما انتابه من أحزان، فقد حضر جنازة أحد أبنائه في مصر، وهو الفضل، كما حضرها كبار القادة كما أشرنا، وهذا الإبن هو واحد من أربعة أبناء صحبوا أباهم أو لحقوا به في مصر، ولم يظهر له أي نشاط في مصر، وهذا على عكس بقية إخوته وأظهرهم أبو محمود إبراهيم الذى ظهر في ميدان المسؤولية العسكرية مباشرة بعد وفاة أبيه. وقد يبدو هذا دليلا على كبر سن القائد جعفر عندما اشترك في الحملة الى جانب جوهر الصقلي الذى كان بدوره قد تجاوز الخمسين بقليل.

هـ) وقد حرص جعفر بن فلاح بعد فتح الشام على تخطي جوهر في القاهرة والإتصال مباشرة بالخليفة المعز لدين الله في المنصورية، لأن نفسه سمت الى الرئاسة العليا، والى الإستقلال بالتدبير في ميدان الشام. وإذا كان المعز، تبعا لسياسته المرسومة في إظهار قيمة جوهر دون غيره، قد كره تصرفات جعفر، ووقوعه في جوهر، وسارع الى رد رسائله إليه ولأمه، وحثه على احترام السلمية، فإنه أوضح له أن حسن السياسة لايقتضي استفساد قلب جوهر مع إخلاصه للنظام : « قد أخطأت الرأي لنفسك نحن أنفذناك مع قائدنا جوهر فاكتب اليه فما وصل منك إلينا على يده قرأناه ولانتجاوزه بعد. »

ولما كان المعز قد وقف على حقيقة مابين القائدين من تنافس وتحاسد وجفاء، وعلى ماتنطوي عليه نفس جعفر الكتامي من طموح الى السلطة العليا، والى الإستقلال بمخاطبة الخليفة مباشرة أي دون وساطة جوهر.

ونظرا لأهمية الرجلين لنظام الدولة، وخوفا من غضب جوهر، وانتزاء جعفر، فقد التزم المعز بموقف المتحفظ، الذي يجعل جوهر هو المسؤول المباشر والأعلى، يليه مباشرة جعفر ذو الطول والعصبية القوية، الذي ارتاح لقول المعز له « فلسنا نفعل ذلك على الوجه الذى أردته وإن كنت أهله عندنا. »

و) بقي الجفاء بين القائدين، ولذلك لم يطلب جعفر نجدات عسكرية من جوهر ولم يسارع الأخير لمساعدته عندما بانت تذر الشر المستطير من جانب قرامطة البحرين كما سيأتي.

وقد أصرت عصبية كتامة في نفسها هذا الموقف المعادي لأكبر رجالاتها في ميدان الشام، حتى مات في ظروف محزنة في دمشق ؛ وعندما لاحت فرصتها في جوهر انتقمت منه أكثر من مرة، وعرضته للهزيمة المنكرة في نفس ميدان الشام، وعملت على ملاحقته، والتمهيد لإبعاده عن المسرح السياسي، وتم لها ذلك بعد عدة سنوات من موت قائدها العظيم.

ولعل ما سبق يؤكد ما نعتقده من ظهور شخصية جعفر بن فلاح كقائد كبير لايقل دوره عن دور زيري بن مناد، وجوهر

الصقلي في بلاد المغرب وفي مصر.

وعدم رضاه بسبق جوهر له في ميدان القيادة العليا، هو الذى دفعه الى محاولة الاتصال المباشر بالخليفة من مركز قيادته في الشام، تصحيحا للوضع وتدليلا على أهميته القصوى للنظام الفاطمي.

ولأن المعز لدين الله كغيره من الحلفاء كانوا جميعا يحتاطون من أثر طموح قادة كتامة، خوفا على سلطانهم، فإنه لم يساير جعفرا ولم يشجعه، لأن وراءه عصبية تدل على النظام بالأسبقية التاريخية، وبالدور التأسيسي الرائد. وليس الأمر كذلك مع طبقة الفتيان الصقالبة الغرباء ممن مسهم الرق ولم تكن لهم نخوة أو عصبية تحركهم، كما سبق وأشرنا.

6 ـ جعفر وفتح مصر :

كان الخليفة المعز لدين الله يعلم أن ظروف مصر سيئة بعد وفاة كافور الإخشيدي، وأنها غنيمة سهلة، ومع ذلك بذل جهدا كبيرا في الإستعداد والحشد، فقد كلف جوهر أثناء تجواله في بلاد المغرب 347 هـ/958ـ959 للميلاد بأن يحشد أكفأ الفرسان، كما أمر عماله في مدن قابس وطرابلس وبرقة بأن يتعاونوا كل منهم في إطار إقليمه من أجل حفر الينابيع والآبار، وبناء استراحة في كل منزل، كما رصد أموالا كثيرة للحملة بلغ مجموعها أربعة وعشرين مليون دينار، وضعها

في صناديق خاصة، وختم عليها بخاتمه، ووكل بها أمينا، أمّا مجموع الرجال من كتامة وزويلة والفتيان فقد بلغ حوالي مائة ألف، هذا غير النجدات التي وردت بعد ذلك مع الحسن بن عمار الكلبي ومع سعادة بن حيان.

اهتم المعز لدين الله بالجند، فحباهم بالهدايا والتقى بهم أكثر من مرة، كما أضفى أهمية خاصة على قائد الحملة جوهر الصقلي، وبالغ في تكريمه، « والله لو خرج هذا وحده لفتح مصر وليدخلن بالإرادة من غير حرب، ولينزلن في خرابات إبن طولون ويبني مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا. » وكل ذلك من أجل أن يطيعه الجميع ويسلسوا له القياد. وكان مساعده جعفر قد صحب معه أبناءه الأربعة، مع حشود كبيرة من عصبيته، الكتامية، والخوف من جهتهم على جوهر وارد في ذهن المعز لدين الله.

وبسبب هذه الاستعدادات احتياطا للطوارىء لم تصادف الحملة الأخيرة والكبرى على مصر أية صعوبة في نفاذها من برقة الى الإسكندرية كذلك كان دور حامية برقة مفيدا للحملة. وكانت الرحلة من المنصورية الى مصر، أشبه بالنزهة العسكرية طويلة الأمد، حيث تخللتها الإقامة المتقطعة على امتداد الطريق الطويل.

وأمام الأسكندرية التي لم تقاوم رجال الحملة أشرف جوهر على ضبط النظام في جيشه، وسيطر على المدينة دون إراقة دماء، واكتسب رضى الناس عندما منع رجاله من

السلب والنهب لأموال الناس وأرزاقهم، والتحرش بهم.

وصدى وصول الحملة الى الأسكندرية واقتحامها سلما كان حسنا، بين الجماهير في الفسطاط. وقد عبر عنه التفويض العام الذي زود به الوزير جعفر بن الفرات، لكي يرسل وفدا ينوب عنه للتفاوض مع جوهر في شأن منح الأمان العام للمصريين في إطار الولاء للفاطميين. وقد أسندت مهمة التفاوض الى الشريف ابي جعفر مسلم العلوي، والى بعض وجوه دعاة الإسماعيلية ومنهم أبو جعفر احمد بن نصر. وقد قبل جوهر منح الأمان لهم باسم المعز لدين الله الفاطمي، نظير إعلان الولاء والتبعية للنظام الفاطمي في بلاد المغرب.

وعندما عرف زعماء الكافورية والإخشيدية ما تضمنه عهد الأمان ولم يكن فيه ما يرضي جشعهم الى الأموال والإمتيازات والإقطاعات عارضوه بشدة، ومالوا الى الصخب والضجيج، وتمسكوا بشعار واحد هو « ما بيننا وبين جوهر الّا السيف. » ولم ينجح إبن الفرات في تهدئة ثائرتهم، وفي إفهامهم بأنهم هم سبب قبوله لمبدأ التفاوض مع جوهر على أساس عهد الأمان.

ولما بدأوا يهيئون للمقاومة ولمنع جنود الحملة من عبور النيل الى الفسطاط، بدأ جوهر في مركزه الحصين في منية شلقان شرقي القناطر الخيرية بمصر في تهيئة جو الحرب ضد هؤلاء العصاة فتحفظ على المراكب التي وصلت من دمياط، حتى لا يتقوا بها، وضيق عليهم الحصار، ثم أمر نائبه في

قيادة الحملة جعفر بن فلاح بأن يختار جماعة ويعبر بهم الى الجانب الآخر من النيل لدحر المعارضين، للسلام العام مع المجتمع المصري في اطار التبعية للفاطميين.

فما كان من جعفر إلّا أن اقتحم النيل سباحة مع رجاله، وليس عليهم إلّا لباس خفيف، واشتبكوا مع قوات المعارضة فبددوا شملها، وتمكنوا من قتل بعض زعمائها مثل نحرير الأرغلي، ومشير الإخشيدي، ويمن الطويل. أمّا الآخرون فقد انسحبوا من جزيرة النيل وتفرقوا في الأنحاء. ومنهم من فر الى الشام وتركوا المصريين يلقون مصيرهم على يد رجال جعفر بن فلاح، وهكذا انتهت المقاومة في مصر، ودخل جوهر الفسطاط يوم السبت في 17 من شعبان 358هـ، وتمركز بقواته في موضوع المناخ حيث وضع أساس العاصمة الجديدة لمصر الفاطمية وهي القاهرة المعزية، كما وضع أساس قصر فخم لمولاه المعز لدين الله، الذى مازال بعد في المنصورية بإفريقية. وعلى الأثر ارسلت البشائر الى الخليفة في إفريقية، بعد أن وزعت الصدقات على الفقراء في الجامع العتيق بالفسطاط احتفالا بالفتح المبين وبصيرورة مصر ولاية فاطمية جديدة.

7 ـ كتامة وإدارة مصر بعد الفتح :

اعتمد جوهر على عصبية كتامة، وعلى قائدها جعفر بن

فلاح، في القيام بالإجراءات الضرورية التي تعبر عن وضع مصر الجديد، كولاية فاطمية ومن ذلك :

أ) إعلان الخطبة للمعز لدين الله بدلا من المطيع العباسي، وقد تم ذلك بداية من 20 شعبان 358 هـ في الجامع العتيق، وفي جامع إبن طولون.

ب) إزالة شعار العباسيين، وإحلال شعار العلويين في الطراز والعملة.

ج) تنشيط المصالح الإقتصادية، وإعادة فتح دار السكة في الفسطاط، حيث ضرب دينار ذهبي جيّد العيار بالمناسبة وعليه تاريخ الفتح، وإسم المعز والدعاء له، وشعار العلويين، وهو « على أفضل الوصيين ووزير خير المرسلين. »

د) أرسى جوهر تقليدا جديدا يقتضي الدعاء لأصحاب الكساء قبل الدعوة للخليفة الفاطمي، وهم الرسول (ص) وفاطمة وعلي والحسنان.

هـ) منع التكبير بعد صلاة الجمعة وفي الآذان والإقامة واعتمد أيضا إكمال العدد للإفطار في نهاية الصوم، حتى ولو لم تحصل رؤية هلال شوال.

كانت ردود فعل السكان غير حسنة وأدت الى إضطراب الوضع الأمني في مصر، وأيضا في بلاد الشام. وهذه الوضعية هي التي عجلت برحيل المعز لدين الله الى القاهرة نهائيا حيث اتخذها عاصمة الخلافة، وترك المغرب يحكمه نيابة

عنه بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي (أبو الفتوح).

والنتيجة الهامة التي ترتبت عن حادث الإنتقال من المغرب الى مصر، هي الإنقلاب في وضع مصر الدستوري والسياسي، حيث صارت منذ الآن ولأول مرة دار خلافة عالمية، ومقر الإمامة علوية إسماعيلية، هدفها اتخاذ مصر معبرا الى الشام والحجاز، والعراق، والشرق العباسي...

واقتضت السياسة الفاطمية الجديدة، في مصر، الإبقاء مؤقتا على عناصر السلطة القديمة، وعلى رجال الإدارة، لكن مع اشراك عنصر المغاربة، ليراقبوا الوضع وليتدربوا على فن التسيير الإداري.

والملاحظ أن إشراك كتامة في التسيير والإعتماد على رجالها وحدهم في ضبط نواحي الإدارة السياسية والمالية والإقتصادية والإجتماعية والقضائية، هو منسجم تماما مع استراتيجية الدولة ومذهبيتها، لكنه مخالف لمضمون عقد الأمان الذى منح للمصريين غداة الفتح، إذ بمقتضاه، يجب أن تحترم أوضاع الناس فلا يهددون في أرزاقهم، وفي مكانتهم أو مذهبيتهم السنية، التي نال منها بصفة تدريجية، تعصب كتامة وتحرشهم بأهل السنة، وبكل المخالفين للمذهبية الإسماعيلية.

وافتقار عناصر كتامة الى الثقافة الرفيعة، والى الإدراك الجيد لوضعية السكان في مصر، فضلا عن القصور في نواحي التسيير الإدارى، أساء الى وضع الفاطميين في مصر والى

علاقتهم بعناصر المجتمع المصري الذين تذمروا من كتامة، ومن سياسة القهر المذهبي، وبيتوا على مناصبة الفاطميين العداء، متى وجدوا الى ذلك سبيلا.

8 ـ جعفر بن فلاح وبلاد الشام :

لاحظنا من قبل مدى المنافسة بين القائدين، جوهر وجعفر، وتبين دور جعفر في إحراز النصر في مصر، وكذا مرتبته في قيادة الحملة. وهذه كلها رشحته لكي يشرف بنفسه على تتبع عناصر الكافورية والإخشيدية الذين التجأوا الى الشام، باعتبارها بقيت منطقة نفوذ إخشيدية حتى الآن، يتولى الإشراف عليها كبير الأسرة الإخشيدية أبو محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج، وكان مركزه في دمشق، ثم انتقل منذ رمضان 358 هـ بسبب أحداث فتح مصر الى مدينة الرملة جنوب فلسطين، لحصانتها، وموقعها في طريق مصر، ولقربها من حدودها، انتظارا للمعركة المرتقبة مع قوات جعفر بن فلاح.

وكان يشرف على حوران وطبرية والبثنية ولاة من عرب بني عقيل وهم : شبيب، وظالم، وملهم، وغلامه فاتك، والي طبرية، وكانت بيت المقدس يشرف عليها الصباحي، أمّا دمشق فكان يتولى أمرها نيابة عن الحسن شمول الإخشيدي.

وهكذا خطط الحسن للمواجهة الحاسمة مع قوات جعفر بن فلاح اعتمادا على هؤلاء الأعوان، وعلى من تحت نظرهم من القوات.

وبسبب الغيرة والتحاسد والخيانة للمبدأ تخاذل بعض هؤلاء الولاة عن نصرة الحسن، ولم يخفوا لنجدته رغم تكرار نداءاته لهم بسرعة اللحاق به لأن قوات جعفر اقتربت من الميدان، بل أن بعضهم مثل شمول لم يتورع عن مكاتبة جوهر، يطعن في الحسن، ويبين له عورات البلاد، ويظهر استعداده لمساعدة جعفر عندما يقترب من دمشق.

وتسبب موقفه وموقف ولاة آخرين في هزيمة الحسن ووقوعه في أسر جعفر بن فلاح منذ منتصف رجب 359 هـ/970 م. حيث أرسل مع بعض رجاله الى القاهرة، ومنها واصلوا رحلتهم صحبة هدية جوهر الى المعز لدين الله في المنصورية (القيروان).

وتلا ذلك سقوط مدن أخرى، ماعدا طبرية التي اعتصم واليها فاتك غلام ملهم العقيلي بالمقاومة، حتى تمكن رجال جعفر من قتله غدرا، وعندئذ استسلمت المدينة رغم استياء سكانها من سياسة الغدر بفاتك، الذي مال الى الموادعة. وكذلك استاء أيضا وفد سكان دمشق الذين حضروا لمقابلة جعفر لإعلان الولاء والحصول منه على الأمان، بعد أن تركهم والى دمشق شمول وانضم إليه في طبرية. ورغم أن جعفرا استقبلهم بحفاوة وتبسط معهم في الحديث، ومال الى إجابة

طلبهم، فإنهم تألموا من سوء الوضع ومن معاملة الكتاميين لهم وعندما فارقوا طبرية منقبضين « وغير شاكرين ولا راضين » نقلوا الى سكان دمشق انطباعا سيئا عما شاهدوه « من قوم جفاة قباح المناظر والزي والكلام ليس لهم عقول يرجعون اليها. »

فاستعد الجميع للمقاومة، وكان عماد المواجهة بقايا الكافورية، وعنصر الأشراف العلويين، وشطار دمشق.

وبتطور أوضاع الفتح في بلاد الشام سيضاف الى هذه العناصر المعارضة للنفوذ الفاطمي في الشام، العباسيون والبويهيون والحمدانيون في الموصل والقرامطة في البحرين وأخيرا الروم البيزنطيون في القسطنطينية.

9 ـ جعفر في دمشق :

وحالة التحفز لمقاومة قوات جعفر أملت عليه خطة أنبنت على التهام أطراف دمشق تدريجيا، وكسر مقاومة عرب بني عقيل في حوران والبثنية، وسكان غوطة دمشق، بالتحالف مع عرب مرة وفزارة، وهذا قبل اقتحام مدينة دمشق، الذى بدأ فعلا بقوات الحملة الرئيسية منذ يوم الخميس 8 ذي الحجة 359 هـ، وانتهى بكسر خدة مقاومة المعارضين والإستقرار في معسكر الشماسية، وتنظيم المعركة المستقبلية، ضد عناصر الثورة، وهم شطار دمشق أو حرسها الشعبي، وأشرافها، وبقايا

جند النظام القديم، وعملاء العباسيين. وعندما ملّ السكان القتال والحصار، مالوا الى السلم وطلب الأمان من جعفر لكنه تمنع عنهم، وعاملهم بقسوة، أثناء لقائه مع وفودهم؛ وكان يقصد من وراء ذلك إشعارهم بأنه في مركز قوة، وأنهم لن يجنوا من وراء سياسة التقلب والعصيان وطاعة الشطار والأشراف، وكل المعادين للفاطميين، إلّا الخسارة الموجعة، والذل المقيم، والخضوع لإرادته مهما كانت التضحيات.

وسياسة التشدد مع وفد السكان، وأثمرت في هدوء الوضع تدريجيا، الذي أعقبه اتصال أشراف دمشق كوسطاء بين القائد والسكان، ولما كان يقدرهم ويميل الى رأيهم، لأنهم من أهل البيت، فقد وافق على منح الأمان للسكان على مقتضى مارسمه، حيث قال « ما أعفو عنكم حتى تخرجوا اليّ ومعكم نساؤكم مكشوفات الشعور فيتمرغن في التراب بين يدي لطلب العفو. » لكنه سرعان ما خفف لهجته بتأثير الأشراف وعدل عما رسمه، وقرر أن يشرف بنفسه على إقامة الدعوة للمعز لدين الله في الجامع الأموى في دمشق يوم الجمعة سنة 359 هـ، ثم يعود بعد ذلك الى معسكره في حي الشماسية. وقد استغل شطار دمشق المشاغبون فرصة انتشار جند كتامة إثر الصلاة في أحياء دمشق وأسواقها وحاراتها، وقتلوا بعضهم بحجة الدفاع عن النفس والمال والحرمات، فتأثر جعفر للحادث واعتبره نقضا للصلح، ولعهد الأمان، وغدرا بجنوده، لايكفي فيه مجرد الإعتذار والتبرير،

إنما يجب لإبقاء سياسة الصلح والعفو، تكفل سكان دمشق بدفع ديات ضخمة للضحايا الأبرياء. وقد وافق أشراف المدينة، ونفذوا ما طلبه جعفر دون تأخير، إلا أن نواياهم كانت تعمل في اتجاه معاكس للنفوذ الجديد، فكيف سارت الأوضاع في دمشق بعد ذلك ؟

10 ـ جعفر وحركة الأشراف في دمشق :

شهدت دمشق ثورة عامة تزعمها هذه المرة عنصر الأشراف بقيادة أظهرهم شخصية وهو أبو القاسم بن أبي يعلي، الذى انضم اليه عنصر الشطار، وعرب بني عقيل بقيادة ظالم بن موهوب، وأبناء عصودا محمد وإسحاق. وكان مظهر الثورة قطع الدعوة للمعز لدين الله، وإزالة شعار الفاطميين وإرجاع الدعوة للمطيع العباسي ولبس السواد شعار العباسيين.

وكانت الثورة التي نشبت بعد أسبوع واحد من اتفاق وفد دمشق مع جعفر على مبدأ الولاء، من الخطورة بحيث استعد لها جعفر وواجهها بقوة واجتهد في إخمادها، وفي القبض على رؤوسها ومدبريها قبل فرارهم.

وبينما نجا ظالم بن موهوب العقيلي، ومحمد بن عصودا الى الأحساء في حماية القرامطة حيث شجعهم على العودة الى بلاد الشام، فشل الشريف أبو القاسم في النجاة الى بغداد، فأدرك في الطريق، وأرجع الى جعفر في دمشق،

حيث شهره وعنفه، ثم أودعه في السجن، حتى ساءت حاله، وعندئذ تأثر جعفر لوضعه، وكان يتعاطف مع الأشراف، وأرسله مع جماعة آخرين الى القاهرة. أمّا إسحاق بن عصودا وآخرون فقد قتلوا و صلبوا واحتزت رؤوسهم وعلقت على أبواب المدينة وفي الميادين الكبرى. وترتب على فشل هذه الثورة تشرد عنصر الأشراف وضعف مقاومة الشطار والمشاغبين من سكان دمشق، التي استقرت أوضاعها تدريجيا في كنف النظام الجديد، والدعوة الفاطمية.

11 ـ مظاهر الإستقرار الجديد :

بدأ جعفر بن فلاح يرسي قواعد السيطرة الفاطمية، ويطبق مظاهر التحول الجديد في الدعوة، وفي الأذان، وفي الإقامة؛ وتصرف على نحو يشعر بأنه اطمأن على الوضع، فانتقل من معسكره بحي الشماسية الى الدكة فوق نهر يزيد من روافد نهر بردى، وأشرف على حركة التعمير والبناء، فاتخذ لنفسه قصرا عجيبا بناه بالحجارة، وتفنن في بنائه حتى جعله « شاهقا في الهواء غريب البناء. » وحوله بنى الجند الكتاميون مساكنهم ومعسكراتهم، ونشطت حركة البيع والشراء في أسواق المغاربة، واتسعت خطتهم، وانبثت الحياة بين أظهرهم حتى صارت خططهم « شبه المدينة »، وكي يصرف الأنظار عن الفوضى، والشغب في داخل دمشق، نشط حركة الجهاد ضد

الروم في منطقة الثغور، بخاصة في أنطاكية والإسكندرونة، التي احتواها البيزنطيون منذ محرم 359 هـ/نوفمبر 969 م، وواصلوا ضغطهم على حلب ومدن الشمال يغريهم ضعف الحمدانيين بعد وفاة سيف الدولة سنة 356 هـ/967 م، وقد تولى قيادة البعوث فتوح الكتامي، وأنجده بعد ذلك في الميدان عراس الكتامي... كما أشارت بعض النصوص الى إشراف جعفر بنفسه على حملة ضد منطقة الثغور.

كذلك تاقت نفسه الى مضايقة العباسيين في المراكز القريبة من بغداد فأرسل الداعي أبا طالب التنوخي الى أبي تغلب ناصر الدولة بن حمدان في الموصل، يطلب منه التمهيد لإعلان الدعوة الفاطمية في الموصل، ويخبره بأنه في طريقه اليه. غير أن إبن حمدان استاء من تصرفه، وأرسل يقول له « هذا ما لا يتم، لأننا في دهليز بغداد، والعساكر قريبة منا، ولكن إذا قربت عساكركم من هذه الديار أمكن ما ذكرتكم ».

والملاحظ أنه رغم جهود جعفر في إقرار الأوضاع في بلاد الشام، فإنها لم تصبح في أي وقت ما عضوا مستريحا في نظام الفاطميين، والسبب هو معارضة السكان للفاطميين ولنوابهم الكتاميين، لداعي الخلاف المذهبي وأيضا لانضمام الحمدانيين والبويهيين والعباسيين والقرامطة لركب المعارضين لأي استقرار للنفوذ الفاطمي في بلاد الشام.

12 ـ جعفر بن فلاح والقرامطة :

أخطر مشاكل الفاطميين، وواليهم في بلاد الشام جعفر بن فلاح، هي معارضة القرامطة لنفوذهم في هذه البلاد.

والقرامطة في البحرين والأحساء شيعة إسماعيلية مثل الفاطميين وكانوا يرتبطون برباط التبعية والولاء الروحي للفاطميين، منذ فترة الستر، وحتى ظهور خلافتهم في بلاد المغرب.

وتبعا لذلك قدموا مساعدتهم من أجل إنجاح عملية فتح مصر، واقتطاعها من جسم الخلافة العباسية، وكذلك لم تبد معارضتهم لامتداد نفوذ الفاطميين الى بلاد الشام، ولعل ذلك سهل مهمة جعفر بن فلاح. غير أن سياسة القرامطة تطورت مع الزمن من الولاء الى الإحتكاك والعداء. ظهر ذلك في عهد أبي علي الحسن بن أحمد الأعصم، وهو رأس فريق يعارض أسرة أبي ظاهر القرمطي التي بقيت على ولائها التاريخي والروحي للفاطميين.

كان الحسن بن أحمد قد ولي الإمارة في الأحساء بعد وفاة أبيه سنة 359 هـ/969 م، وتدرج منذ بداية ولايته نحو بناء سياسة خارجية جديدة لدولة القرامطة على غير ما جرى به التقليد التاريخي في ميدان العلاقة مع الفاطميين.

ومن أركان هذه السياسة الجديدة :

أ) التحرر التدريجي من التبعية السياسية والروحية للفاطميين، باعتبار أن المصالح قد تتعارض أحيانا، خاصة في بعض مناطق النفوذ في المشرق وأخصها بلاد الشام التي مد القرامطة نفوذهم اليها وارتبطوا مع حكامها الإخشيديين من قبل، باتفاق يقضي بدفع هؤلاء أموالا سنوية الى القرامطة، تم ذلك قبل فتح مصر، وبلاد الشام من طرف جعفر بن فلاح.

ب) إبعاد الموالين للفاطميين في البحرين عن السلطة ومراقبة تحركاتهم. ولذلك نجد الحسن ينفي أسرة أبي طاهر الى جزيرة أوال، حتى لا يثيروا الشقاق الأسرى في داخل إمارة القرامطة لحساب الفاطميين.

ج) وتأكيدا للإتجاه الإستقلالي عن الفاطميين لم يعترض الحسن بن أحمد أثناء وجوده في مكة (359 هـ/969 م) على إقامة الدعوة للمطيع العباسي بدلا من المعز لدين الله الذى كان قد دعا له أشراف مكة، وقبلوا إعلان الولاء له، منذ أن تدخل لفض خصوماتهم وتحمل دفع ديات قتلى بنى الحسن منهم.

د) وتلا ذلك، وبسبب ماظهر أنه تحرك من المعز لدين الله ضد الحسن بن أحمد بتشجيع أسرة أبي طاهر، قطع الدعوة في البحرين للمعز لدين الله وأعلنها للمطيع العباسي، وربط الصلة السياسية مع أمراء بني بويه المستبدين بسياسة الخلفاء العباسيين في بغداد.

هـ) وكانت بلاد الشام مركز الإحتكاك الحقيقي بين الحسن والفاطميين. فقد تمسك الحسن بمركزه السياسي وحقوقه المادية في هذه البلاد، وكي يثير معارضة الفاطميين. ويمهد للإصطدام المادي معهم، طلب من جعفر بن فلاح الإستمرار في دفع الأموال المقررة للقرامطة من طرف النظام الإخشيدي القديم. وكان مقدارها ثلاثمائة ألف دينار سنويا بحيث يعني هذا - لو تمّ - اعترافا بنفوذ للقرامطة وبحقهم في هذه البلاد.

وهو أمر غير مقبول، لأنه يتناقض مع الإتجاه التاريخي المألوف لأسرة القرامطة، وأيضا مع الأحداث الجديدة التي صيرت بلاد الشام أرضا خالصة للفاطميين بحق الفتح الجديد الذي أشرف على تحقيقه جعفر بن فلاح، بعد جهود مضنية.

و) ولأن المعز لدين الله ونائبه في مصر، وفي بلاد الشام، قد رفضوا ادعاءات الحسن بن أحمد، واعتبروه خارجا عن الصف، وعن الخط السياسي لأسلافه، فقد بدأ عهد الإصطدام المباشر، والزحوف العسكرية والمواجهة الساخنة بين القرامطة والفاطميين في بلاد الشام. وقد استهل الحسن بن أحمد المعركة برسالة تهديد الى جعفر بن فلاح جاء فيها:

الكتب معذرة والرسل مخبرة
والحق متبع والخير موجود
والحد ساكنة والخيل صافنة
والسلم مبتذل والظل ممدود

وأن أنبتم فمقبـــول أنـــابتكم

وأن أبيتم فهذا الكـــور مشـــدود

على ظهـور المـطـايـا أو يـردن بنـا

دمشق والبـــاب مهـــدوم ومـــردود

وتلا ذلك الزحف العسكرى الذي انضم اليه كل أعداء النفوذ الفاطمي في بلاد الشام.

13 ـ جعفر بن فلاح وفترة الحسم :

(معركة الدكة في ذي القعدة 360 هـ/970 م)

إن اللقاء الذي تم بقرية الدكة على نهر يزيد من فروع نهر بردى، ببرية دمشق، كان حاسما لفائدة معسكر الحسن بن أحمد القرمطي. فكيف سارت الأوضاع في كلا العسكرين ؟

في البداية يلاحظ أن القرامطة مهدوا للتدخل العسكري بجملة من الأعمال والإجزاءات، منها :

أ ـ رحبوا بالمعارضين للنفوذ الفاطمي في بلاد الشام، وبخاصة أولئك الذين فروا الى بلادهم عقب فشل ثورة الشريف أبي يعلى، وهما إبن عصودا وظالم بن موهوب العقيلي، واستمعوا لآرائهما وشكاواهما ومطالبهما بضرورة الزحف لإزالة الظلم الفاطمي والمغربي المسلط على جماهير السنة، ولهذا عندما ظهرت طلائع الحسن بن أحمد بجوار دمشق بدا وكأنه جاء منقذا للبلاد والعباد، وبناء على طلب

ورغبة جماهير السكان التي عبر عنها ممثلوهم في الأحساء. وفي الحقيقة لم يكن هم الحسن بن أحمد غير تحقيق أهدافه الإقتصادية والإستراتيجية في بلاد الشام.

ب ـ وفي هذا الإطار تظاهر بالعمل في إطار الشرعية الخلافية، ووفق أوامر ورغبات الخليفة العباسي المطيع لله صاحب السيادة على بلاد الشام، وكذلك السلطان البويهي عز الدولة بختيار، فقد أرسل اليهما يعرض تبعيته ويطلب مساعدتهما لبدء العمل المادي ضد الفاطميين. ولئن كان المطيع العباسي قد تظاهر بعدم الأكتراث وعبر عن رأيه بقوله عن القرامطة والفاطميين (كلهم قرامطة) فإن السلطان البويهي تحرك لنجدة الحسن بمعدات وأموال، وكلف إبن حمدان بمساعدته أيضا. وكان هذا قد أحنقه تصرف جعفر بن فلاح من قبل.

ج ـ وقد أعلن شطار دمشق، وأحداثها، وأشرافها، وسائر شرائح المجتمع فيها تأييدهم ومساندتهم لأي مجهود يقوم به القرامطة ضد تسلط كتامة وقائدها جعفر بن فلاح.

وهكذا اكتملت تعبئة القرامطة من الناحيتين الأدبية والمادية، وصار الحسن بن أحمد يتصرف بوحي من الإرادة الشعبية في الشام، وبرضا وموافقة العباسيين والبويهيين، ولهذا زحف على عجل لمفاجأة خصمه جعفر قبل أن يجهز نفسه للمعركة المرتقبة التي لم يكن يتوقعها سريعا.

أما جعفر بن فلاح فرغم أهليته وكفاءته وظفره في الحرب

الداخلية وعلى جبهة الثغور :

أ) فقد كانت استعداداته قاصرة عن الوجه المطلوب، وكان فهمه لمسيرة الأحداث أيضا يشوبه الكثير من الخلط والغموض فضلا عن الإستهانة بالخصماء، والجهل بمقدار قوتهم وتأثيرهم في الأوساط الداخلية والخارجية.

ب) وهكذا فإن جعفر إبن فلاح كان يعلم بأن الفارين من بطشه عقب فشل ثورتهم في دمشق، قد التجأوا الى الأحساء لاللراحة، والنزهة، وإنما للأعداد لليوم الموعود بقوات حليفه من القرامطة، ومع ذلك لم يحسب للأمر حسابه الدقيق حتى فاجأوه.

ج) وقد ترك هؤلاء الفارون جمهورا عريضا من المعارضين لوجود جعفر وكتامة في بلاد الشام وهذه الجماهير، التي ألف بينها العداء للشيعة الفاطميين وأعوانهم المغاربة الكتاميين، كانت تضم أشتاتا من الشرائح الإجتماعية، ففيهم الأشراف الذين أوذوا من قبل، والشطار أو المليشيات الشعبية الدفاعية الذين ظهر دورهم الى جانب السكان، دفاعا عن المذهبية السنية، ودفعا لأذى الكتاميين.

د) وفي الوقت الذى ربط فيه القرامطة صلات متينة مع العباسيين والبويهيين ليحظوا بالشرعية، نجد جعفرا بن فلاح ينابذ جوهر الصقلي في مصر ويجافيه، ولا يكاتبه بحقيقة الوضع في الشام، مع أنه المسؤول الأعلى، ويحاول تجاوزه الى المعز لدين الله.

ولهذا انصرف جوهر عنه، ولم يساعده وتركه يواجه المصير بنفسه ما دام قد أوضح في رسائله للمعز لدين الله بأنه في غنى عن مساعدة جوهر، ويستطيع بقواته السيطرة على الأوضاع.

هـ) ولو كانت قواته مجتمعة في دمشق وفي أرجائها القريبة لهان الأمر، ولأمكن توزيعها توزيعا مناسبا، لتنظيم الدفاع والمقاومة ضد قوات الأحلاف، لكن الأمر لم يكن كذلك حيث أن جزءا كبيرا من قوات جعفر كانت بعيدة عن مركز القتال أما في منطقة الإسكندرونة أو في بعض المدن الأخرى، ولم يتمكن جعفر من تجميعها إلّا بعد جهد، وعلى صورة غير منظمة. لذلك عندما ووجهت بقوات ضخمة ومجهزة، ومستعدة للقتال، سرعان ما افتكت منها النصر بسهولة مذهلة.

و) لم ينظم جعفر قواته، ولم يختبر الحالة السائدة بينهم نظرا لضيق الوقت ولحالة الإستعجال، والتعبئة وتوزيع القوات التي أنهكها التعب من طول السفر.

وكذلك لم تكن عنده تقديرات صائبة عن قوات أعدائه، ولم يرتب طلائع لتقصي أخبارهم وتحركاتهم، حتى لايفاجئوه، وهذا بدافع الغرور والإستهانة بهم.

ز) ولو أن جعفرا رابط في مركزه الحصين بدمشق ونظم الدفاع عنها، وأرسل نائبا عنه لقيادة المعركة ضد الأحلاف المعارضة بظاهر البرية. وعكف على إمداده بالقوات اللازمه، لكان في

ذلك فائدة كبيرة، لكنه أخذ برأي بعض رجاله المتهورين، وفارق دمشق على حالتي الإستعجال والإرتجال الى طرق البرية، وواجه القوات الزاحفة والمتفوقة عدديا بنفسه خارج معسكره الحصين، فلم يكن إلّا كرجع الصدى أو دونه حتى «كبسوه» وأحاطوا بقواته في قرية الدكة على نهر يزيد، فنالوا منهم، وقتلوا سراتهم وأسروا رجالهم، وألجأوا البقية الى الفرار ولم ينج القائد جعفر نفسه من القتل. وقد قيل أنه كان يقود المعركة وهو مريض. وقد احتز محمد بن عصودا رأسه وصلب جثّته على حائط قصره، انتقاما منه، لقتله من قبل أخاه إسحاق بن عصودا وصلبه، وذلك بعد فشل ثورة الشريف أبي يعلى. أمّا الحسن بن أحمد فقد تأثر لحادث قتله فبكاه ورثاه وخاطبه من خلال قصره الشاهق في دمشق كما أشرنا من قبل.

14 ـ آثار إختفاء جعفر بن فلاح :

أصبحت دمشق بعد انجلاء المعركة في 6 ذي القعدة 360 هـ أغسطس 970 م، منطقة نفوذ للحسن بن أحمد القرمطي، فباشر تحصيل الأموال جباية من سكان المزّة، وأعلن الأمان العام للسكان، كما وفى بعهده للعباسيين وعمل باسمهم مؤقتا، فأزال شعار الفاطميين، والدعوة للمعز لدين الله ليحل محلها شعار العباسيين وهو السواد، والدعوة للمطيع لله العباسي.

وقد استخلص جوهر الصقلي في مصر دروسا بليغة مما جرى لنائبه جعفر في الشام، فلم يتحرك للثأر والإصطدام مع قوات القرامطة في الشام ولإعادة الأمن الى نصابه والنفوذ الفاطمي الى سابق عهده، لأنه لاحظ تفوقهم العددي وتحصنهم بأحلاف خارجية متينة تعضدها الجبهة الداخلية المعارضة للفاطميين.

وكان ذا بصيرة نافذة عندما اجتهد لتقوية مركزه في القاهرة، حيث قام بتحصينها استعدادا للمعركة المرتقبة مع القرامطة، وفي نفس الوقت سلك سياسة حازمة مع عناصر الثورة والشغب الداخلية في مصر، التي تحركت وتعاطفت مع انتصارات القرامطة والعباسيين في بلاد الشام.

وقد رأى جوهر أن تطورات الأوضاع الخطيرة في جبهة الشام وفي مصر، ومانفرضه من مواجهة حاسمة ومركزة، تقتضي أن يعجل المعز لدين لله الفاطمي حركة هجرته وانتقاله النهائي من المنصورية في بلاد المغرب، الى مدينة القاهرة المعزية في مصر، ليشرف بنفسة على المعركة السياسية والدعائية والإستراتيجية ضد المنشقين القرامطة والعباسيين وأتباعهم في الشام وفي مصر.

فكان حادث الأنتقال سنة 362 هـ/972 م إذانا بعصر جديد للخلافة الفاطمية ولاستراتجيتها العليا، التى استهدفت اتخاذ مصر قاعدة للزحف ضد قواعد العباسيين ومراكزهم في الشرق، لتوحيد الخلافة وجعلها في آل بيت الرسول العلويين

الفاطميين.

15 ـ المعز لدين الله وأبناء جعفر بن فلاح :

باستقرار المعز في القاهرة تصبح مصر دار خلافة إسلامية، والقاهرة عاصمة لهذه الخلافة، وقاعدة للمواجهة السياسية والعسكرية ضد أعداء النفوذ الفاطمي سواء كانوا عباسيين أو قرامطة منشقين.

وقد ترتب على حادث استقرار المعز لدين الله في القاهرة تقلص في نفوذ جوهر الصقلي، الذى أصبح يهتم بالنواحي العسكرية فقط تحت إشراف الخليفة نفسه.

وقد أصبح المعز، المشرف الأعلى، على سير المعركة ضد القرامطة وحلفائهم.

وقد افتتح عهده بمكاتبة الحسن بن أحمد يذكره بماضي أسلافه القرامطة في النضال الى جانب الفاطميين أتباعا مخلصين، وينكر عليه الإتجاه السياسي الجديد، الذي خرب ما بناه الأسلاف من علاقات تكاملية متينة، خدمة للأغراض الشخصية الخاصة وممالأة لأعداء الحركة الإسماعيلية من عباسيين وبويهيين، وحمدانيين، وروم بيزنطيين، ومن بعض زعماء العرب المشاغبين في فلسطين وبلاد الشام، من بني عقيل، وبني طي، وبني كلب، وبني

كلاب وبني مرداس.

ولما كان الحسن بن أحمد مصرا على الإستمرار في نهجه العدائي فقد رد ردّا جافا وعدائيا على خطاب المعز، نصه : « وصل إلينا كتابك الذى كثر تفصيله وقل تحصيله، ونحن سائرون اليك على إثره والسلام. »

وزحف فعلا نحو القاهرة. وفي المعركة التي جرت منذ شهر رجب 363 هـ/مارس 974 م أمام الخندق الذى جهزه جوهر من قبل ليحمي المدينة، نجح تدبير المعز مع بني طي، وانهزم الحسن بن أحمد وبقية أحلافه، واضطر الى الإنسحاب على حالة سيئة الى الشام ومنها الى الأحساء، تاركا أبا الهيجاء القرمطي وظالما بن موهوب العقيلي، لتصريف شؤون البلاد مؤقتا على أمل العودة الى ميدانها من جديد.

ولم يبق بعد حماية القاهرة من السقوط هذه المرة، إلاّ العمل على تتبع آثار القرامطة في الشام، تصفية لنفوذهم، وانتقاما من نوابهم وأتباعهم. وهذا كان دور أكبر أبناء جعفر بن فلاح الكتامي، قتيل القرامطة في دمشق وهو :

ـ أبو محمود ابراهيم بن جعفر :

عين المعز لدين الله ابا محمود إبراهيم لمتابعة القرامطة وارجاع بلاد الشام ولاية فاطمية كما كانت، وأوصاه بأن يتعاون

مع ظالم بن موهوب العقيلي، الذي مال الى الولاء للخليفة المعز، ووعده بالوقوف الى جانبه في المعركة ضد القرامطة.

وقد صحبت أبا محمود قوة كتامية كبيرة وطدت العزم على الأخذ بالثأر لقائدها الفذ جعفر بن فلاح.

وفي دمشق وقع اللقاء بين القائد أبي محمود وظالم بن موهوب كما تم التفاهم على العمل المشترك طبقا لما رسمه المعز لدين الله من قبل مع الأمير العربي.

وبفضل التنسيق بين الرجلين ألقى القبض على أبي الهيجاء، نائب الحسن بن أحمد، وعلى بقية القرامطة وأعوانهم من بين عناصر الشطار، وفقهاء السنة، وأشهرهم في هذه المرة، أبو بكر محمد بن أحمد النابلسي الزاهد والفقيه المالكي الذى عرف بتطرفه في العداء للفاطميين، وجند كتامة، الى حد أن نقل عنه قوله « لو أن معي عشرة أسهم لرميت تسعة في المغاربة، وواحدا في الروم. »

وعندما ووجه بذلك أمام المعز لدين الله لم ينكره، وقد أرسل جميع هؤلاء مقيدين الى القاهرة المعزية، حيث شهر بهم، وبينما اكتفى المعز باعتقال أسرى القرامطة فترة ثم أطلق سراحهم وأكرمهم، رجاء تراجع الحسن بن أحمد عن سياسيته العدائية، أمر بقتل النابلسي، والتمثيل به فأصبح في نظر أهل السنة شهيدا. وبنو الشهيد في مدينة نابلس يرفعون نسبهم اليه رحمه الله.

لم تثمر سياسة المعز تجاه أسرى القرامطة، لأن الحسن بن أحمد، عاوده الحنين الى بلاد الشام، وهذه المرة في عهد العزيز بالله، وذلك عندما ظهر التياث الحالة واضطراب الوضع فيها بسبب حركة مغامر تركي من أتباع البويهيين، هو افتكين الشرابي. فقد تعاون الرجلان معا ضد النفوذ الفاطمي، ونسقا ضد جوهر الصقلي، وأبي محمود إبراهيم بن جعفر بن فلاح. غير أن الحيلة أثمرت مع افتكين حيث قبل العودة الى طاعة العزيز بالله والإنتقال الى القاهرة، كأحد أتباعه المقربين، هذا بينما لم تنفع المحاولة مع الحسن بن أحمد الذى رفض الإلتقاء مع الخليفة، كما امتنع من قبول هداياه، ورجع مدبرا الى الأحساء. ومع ذلك رتب العزيز بالله من تلقاء نفسه أموالا سنوية دأب على إرسالها معونة الى القرامطة في الأحساء، ليكف أذاهم عن بلاد الشام.

بحيث وجد العزيز بالله حلا سلميا ومرضيا لمشكلة العلاقة مع القرامطة، فلم يفكروا بعد ذلك في العودة الى بلاد الشام فضلا عن مصر.

ـ أبو محمود والشطار في دمشق :

وبقي بعد ذلك أن يواجه الفاطميون ونائبهم في الشام، أبو محمود إبراهيم بن جعفر، مشكلة المليشيات الشعبية وهم عنصر الأحداث أو الشطار، الدين دأبوا على العصيان،

والثورة، والشغب ضد الفاطميين، وجند كتامة، متى وجدوا الى ذلك سبيلا. وقد امتدّ نشاطهم التخريبي منذ الفتح وحتى سقوط بلاد الشام في أيدي السلاجقة في القرن 5 هـ/11 م. واشتهر من زعمائهم علاء بن الماورد، وابن الجطار، وقسام التراب، وهذا الأخير كان له شأن كبير في الأحداث السياسية في دمشق أثناء ولاية أبي محمود إبراهيم.

وقد استفاد عنصر الشطار من ميل جند كتامة الى السلب والنهب، ومن تواطؤ ظالم بن موهوب معهم كراهية في أبي محمود وكتامة ومن ظهور القرامطة في ميدان الشام، مغامرين، فأوغلوا في الشر وفي تهييج الجند، وفي الإعتداء على الأنفس والأموال والحرمات « فاضطرب الناس في دمشق » وخافوا وخربت المنازل وانقطعت المواد وانسدت المسالك وبطل البيع والشراء، وقطع الماء عن البلد، فبطلت القنوات والحمامات، ومات كثير من الفقراء على الطرقات من الجوع والبرد » وكانت هذه الأيام حالكة السواد في دمشق، إذ لم يبق لسكانها مع الفئات المتصارعة الشطار وجند كتامة « لامال ولا حريم ولا روح لأن الأحداث غلبوا عليها وليس للأعيان معهم حكم ولا للسلطنة عليهم طاعة » على حد تعبير النصوص.

وفي هذه الأجواء القاتمة بذل أبو محمود إبراهيم قائد الجند، وابن أخته، جيش بن محمد بن الصمصامة، جهودا كبيرة من أجل تهدئة الوضع بكف أذى الجند عن السكان،

وعزل عنصر الشطار عنهم، وفي ندائه الى السكان خاطبهم بقوله « ما نزلت لقتالكم، وإنما نزلت لأرد هؤلاء الكلاب عنكم، يعني أصحابه.»

وقد نظم مصلحة الشرطة وعهد بها الى رجلين واحد من المغاربة والآخر من بقايا الإخشيدية، ولما رغب السكان في إزاحتهما استجاب لذلك وانتدب أبا الثريا الكردي لمهمة ضبط الأمن في دمشق، وتقليم أظافر الشطار، والعمل على قتل رؤسائهم، مثل إبن الماورد أو اعتقالهم، بيد أن أبا الثريا فشل في المهمة، وازداد الوضع تدهورا، فتدخل أولو الرأي ومشائخ المدنية لدى أبي محمود إبراهيم يرجونه إعلان الأمان العام للسكان والعفو عنهم، وكي يوافقهم ويتأكد من صدق نواياهم، ومعارضتهم لنشاط الشطار « فتح المسلمون المصاحف والنصارى الانجيل، واليهود التوراة، واجتمعوا بالجامع وضجوا بالدعاء وداروا المدينة وهي منشورة على رؤوسهم. » وأحضروا رؤساء الشطار ومنهم إبن الماورد، وعنفوهم على مواقفهم من السلطة، واتفق الجميع على الهدوء في إطار الولاء للخلافة الفاطمية.

وفي هذا الوقت تسرع المعز لدين الله فأصدر أمرا لأبي محمود وجند كتامة، بالإنسحاب من دمشق الى الرملة، تهدئة للوضع وكلف ريان الخادم لضبط الأمور فيها مؤقتا. فلما اضطربت الأوضاع من جديد، بظهور افتكين التركي، وتجمع السكان حوله كراهية في الفاطميين، عاد أبو محمود إبراهيم

وابن أخته جيش من جديد الى دمشق للقضاء على خطر افتكين وحلفائه شطار دمشق، الذين تجمعوا بعد تحييد افتكين حول قسام التراب الذي تظاهر بالولاء للفاطميين، كي يبعد عنه خطر ولاتهم الكتاميين خاصة أبا محمود وجيشا، وسليمان بن جعفر، فتحايل لإخراجهم بمكاتبة الخليفة العزيز بالله يعلن طاعته ووقوفه ضد البويهيين، بحيث لم يبق في دمشق على حالة سيئة مع قسام إلا أبو محمود إبراهيم الذي استمر واليا، وقائدا للجيش. حتى هلك في صفر 370 هـ / اغسطس 980 م، فخلفه ابن أخته والي طرابلس القديم جيش بن محمد بن الصمصامة الكتامى، واليا وقائدا، حتى أخرجه منها غاضبا خاله الآخر وهو :

ـ أبو تميم سليمان بن جعفر بن فلاح في الشام :

ذلك أن سليمان كره تصرفات جيش وقسوته على سكان طرابلس، فأبعده عن المسؤولية، لبث الإطمئنان في نفوس السكان، وكان ميالا بطبعه الى الإصلاح، مع همة عالية، وصفاء طوية.

ووجوده في دمشق هذه المرة، بجوار أخيه أبي محمود إبراهيم، ارتبط بحركة المغامر قسام التراب، وأحلافه شطار دمشق، كما أشرنا، حيث أظهر الحزم في مقاومة استبداد قسام والشطار ومنعهم من حمل السلاح، وجباية الأموال،

وضيق عليهم. لكنهم تظاهروا بالولاء للخليفة العزيز بالله والعداء لغريمه البويهي : عضد الدولة الذي كان يطمح الى التوسع في بلاد الشام باسم العباسيين.

ولأن العزيز بالله وثق بظاهر أقوالهم، فقد أمر سليمان بالكف عنهم ومبارحة دمشق الى الرملة، فلم يسعه إلا تنفيذ الأوامر، والعودة نهائيا الى مصر.

وبتطور أحوال بلاد الشام، وعدم استقرارها بسبب كثرة توارد الولاة عليها في مدة قصيرة وكثرة الفتن والشبهات، والمؤامرات الداخلية والخارجية، أتيحت الفرصة لعودة أبي تميم سليمان بن جعفر مرة أخرى قائدا وواليا لبلاد الشام. وقد تم ذلك بعد أن ساءت الأوضاع في مصر في عهد الحاكم بأمر الله بين طوائف الجند المشارقة والمغاربة. وكان يشرف على المشارقة الوصي برجوان الصقلبي، بينما كان يتزعم المغاربة والكتاميين، أمين الدولة الحسن بن عمار الكلبى، المعروف بشيخ كتامة.

وقد أدرك مجدا كبيرا في عهد الحاكم، وولي خطة الوساطة وهي مرتبة الوزارة الصغرى، وساد وشاد ولمع نجمه، وقوي شأنه وشأن المغاربة به، مما أوغر صدور المشارقة وعمدتهم وصي الحاكم برجوان الصقلبي الذي بدأ يكيد للقوم، ويشهر بهم على أساس أنهم استبدوا بالدولة وبالخليفة، وأساءوا الى مظاهر السلطة في مصر، ولم يقتصر نشاطه ضد إبن عمار وكتامة على مصر، بل تجاوزها الى بلاد

الشام، حيث أرسل الى غلام العزيز بالله والي دمشق التركي وهو منجوتكين يشرح له الوضع المتردي بسبب طغيان إبن عمار وكتامه، ويستحثه على المجيء لنجدة الخليفة، فلم يتوان منجوتكين، وبدأ يعد للزحف نحو مصر.

ولما كان إبن عمار قد أحيط علما بتحركات منجوتكين في دمشق، فقد هيأ نفسه للمعركة بمساعدة عصبيته الكتامية وأولى الرأي والحزم فيها، ومنهم :

أبو تميم سليمان بن جعفر بن فلاح، الذي عين اسفهسلارا، أي قائدا للقوة الضخمة التي وجهها إبن عمار ضد منجوتكين في دمشق وكان يساعد سليمان، أخوه علي بن جعفر. وقد تمكن أبو تميم من السيطرة على الوضع في دمشق، والقبض على منجوتكين بعد هزيمته في عسقلان حيث تم إرساله الى القاهرة منكسرا ذليلا. فاصطفاه إبن عمار وقربه ليستميل به عنصر المشارقة في الجيش.

ومع ذلك، فإن وضع إبن عمار، وكتامة قد اضطرب في مصر، بسبب نشاط برجوان، وعنصر المشارقة الذين تمكنوا من استغلال نقاط الضعف في مركز إبن عمار، ومنها بقاؤه في قلة من رجاله، وغيبة أنجعهم في ميدان الشام. وخاضوا ضده معركة انتهت لغير صالحه، فاختفى فترة، ثم ظهر على حالة بائسة ليلقى مصيره على يد المتآمرين بجوار القصر الكبير تجاه باب الديلم. وقد احتز رأسه ورفع الى الحاكم بأمر الله، الذي أمر بدفنه، وكتب الى إبن عمه والي

صقلية يوسف بن أبى الحسين، يبرر قتله لا نحرافه وكثرة ذنوبه.

- أبو تميم سليمان، بعد قتل إبن عمار في مصر :

أما برجوان فقد أرسل الى أشراف دمشق يحثهم على قتال سليمان؟ بن جعفر وعنصر الكتاميين، فزحفوا ضده على حين غرة، وهو في قصره، وألجأوه الى مغادرة دمشق الى الرملة. أما أتباعه فقد نالهم التنكيل من طرف المشارقة وأحداث دمشق الذين استرجعوا نفوذهم في هذه المرحلة. وقد بقي سليمان في الرملة جنوب فلسطين حتى قبض عليه إبن أخته، جيش بن الصمصامة، أثناء مروره بالمدينة متوجها الى دمشق، واليا عليها من طرف الحاكم بأمر الله، تم ذلك بتزكية من وصيه برجوان الصقلبي، لقاء خدمات معنية قدمها جيش، لعنصر المشارقة، ضد أخواله وبني جلدته الكتاميين.

- جيش بن الصمصامة وعنصر الشطار في دمشق :

لقد عرفته بلاد الشام من قبل (363 هـ) مساعدا لخاله، أبي محمود، وقائدا لنجدة دعمت والي دمشق التركي منجوتكين، الذي كان يستعد لمقاومة هجوم الروم البيزنطيين، الذين زحفوا بقيادة باسيل الثاني، منذ 385 هـ/995 م،

وبعد ذلك استقر واليا على مدينة طرابلس بعد انتهاء المهمة الإستثنائية، ولم يفارقها الا كرها، كما أشرنا. أما الآن فقد أرجع الى ميدان الشام واليا رسميا، يحظى بثقة الحاكم بأمر الله ووصيه برجوان وعنصر المشارقة المنتصرين على أبناء عصبيته الكتامية وعلى رأسهم إبن عمار.

جيش والمهام الكبرى في الشام :

وقد جعل من بين مهامه، بعد تأديب عرب بني طي، جنوب فلسطين، وشيوخهم من أسرة بني الجراح، على تقلبهم السياسي، ثم إخراج القائد الرومي الذي تحصن في أفامية بساحل الشام، نصرة لثائر محلي في صور، تقليم أظافر عناصر الشغب المحلية في مدينة دمشق، وهم الشطار، والأشراف وسائر من حالفهم لزعزعة الإستقرار والأمن والنظام.

وقد تمكن جيش من إنجاز ماكلف به، وأدرك مجدا كبيرا خاصة بعد أن رسم خطة ناجحة لتصفية الشطار، بدأها بمحاولة كسب ودهم والتظاهر بالتلطف معهم، والدأب على مؤاكلتهم، والحديث مع رؤسائهم، كذلك استعان بهم في تسيير الشؤون الإدارية، ورسم بعضهم حجابا له، فلما اطمأنوا اليه، وأمنوه، أعطى أوامره السرية لأعوانه بالتأهب لتنفيذ ما يأمر به في الوقت المناسب، وقد قسم دمشق وضواحيها الى أقسام، جعل على كل قسم منها مكلفا بالأمن تكون مهمته

عند تلقي الإشارة الخاصة، الإجهاز على عنصر الشطار والمفسدين في ناحيته.

وأولم وليمة كبيرة مثلما جرت عادته مع الشطار، ورتب في حمام منزله مجموعة من المغاربة المسلحين بالسيوف، وكلف أحد خواصه بأن يتأكد من حضور رؤساء الشطار، الى الوليمة، وألا يعطي إشارة البدء في التصفية إلّا بعد إنهاء الأكل، وانتقال رؤساء الشطار الى الحمام للإغتسال، عندئذ يحكم غلق الباب، ويترك تنفيذ بقية المهمة الى المختبئين في الحمام، وهكذا انطلت الحيلة على القوم، وتمكن الحرس من قتلهم جميعا، وانساح رجال إبن الصمصامة في دمشق ونواحيها يقتلون الشطار وأعوانهم، وكان نصيب أحد قادة كتامة، ويسمى نصرون، قتل ألف منهم في الغوطة والمرج، وذلك لأنهم « كانوا كثيرين ».

وإثر الحادثة انكسرت نفوس الناس وضعفت روح المقاومة بينهم، وطلبوا الأمان من إبن الصمصامة فاستجاب لهم، بعد أن وظف عليهم مغارم ثقيلة بقصد إرهاقهم وتأديبهم على مساندة حركة المشاغبين ضد السلطة.

كما نال الأشراف أيضا التعنيف والتوبيخ والنفي الى مصر، جزاء لهم على تعاطفهم مع الشطار، أعداء النفوذ الفاطمي في الشام.

وبهذه الاجراءات عاد الهدوء الى نصابه، واستعادت

مدينة دمشق حياتها الطبيعية، كمركز لولاية تابعة للفاطميين، ومارس سكانها نشاطهم في أمن وسلام، طيلة فترة ولاية جيش بن الصمصامة، وفترة إبنه محمد الذي خلفه مؤقتا بعد وفاته ابتداء من ربيع الآخر 390 هـ، واستمر الهدوء طابع حياة المدنية، بعد ذلك في عهود الولاة الذين تعاقبوا عليها، بعد انسحاب محمد بن جيش مع إخوته الى مصر؛ والولاة هم : تميم بن إسماعيل الكتامي، الملقب (فحل)، وعلي بن جعفر بن فلاح، وختكين الداعي، وطزملة بن بكار، ومفلح اللحياني، وحامد بن ملهم، وعبد الله بن نزال.

ومن بين هؤلاء الولاة والقادة يجب أن نقف عند دور :

علي بن جعفر بن فلاح في الشام :

ولى علي بن جعفر عدة مهمات في دمشق، وورد عليها مسؤولا أكثر من مرة. أولاها عندما كان مساعدا لأخية أبي تميم سليمان (في جمادى الآخر 391 هـ)، الذي أنكر عليه شدته وقسوته مع السكان فكف أذاه عنهم. وكانت وفادته على دمشق للمرة الثانية، بعد وفاة واليها فحل الكتامي، وانحصرت مهمته في الجوانب العسكرية ولم يمارس السلطات المالية التي احتكرها إبن عبدون النصراني، حتى شهر رمضان 392 هـ/ يولية 1002 م، حيث خلفه ختكين الداعي على رأس الولاية، ولأنه لم يوفق في ضبط الأمن والنظام، وسط الجند

الذين لقوا التأييد من القائد علي بن جعفر عوض بوال جديد.

أما المرة الثالثة التي وفد فيها علي بن جعفر على دمشق واليا فكانت منذ ربيع الأول 398 هـ/1007 م، أي بعد انتهاء مهمة الوالي مفلح اللحياني الخادم. وقد ولاه الحاكم في هذه المرة مكافأة له على جهوده في نصرة الدولة، وفي إنهاء حركة الثورة المشايعة للأمويين في الأندلس تلك التي تزعمها أبو ركوة في برقة وعضدها عرب بني قرة، وأحلافهم ضد الخلافة الفاطمية في عهد الحاكم بأمر الله.

وشلمت سلطته هذه المرة النواحي العسكرية، والمالية، واستمر في المدينة حتى منتصف رمضان 399 هـ/ أبريل 1009 م، وبعدها رجع الى مصر، حيث ابتسم له الحظ، برضا الخليفة الحاكم بأمر الله، عنه وتعيينه في أسمى وظائف الدولة الفاطمية وهي رتبة الوزارة الكبرى. وقد تضمن مرسوم تعيينه « الإشراف على رجال الدولة ومراقبة الإدارة في الإسكندرية وتنيس ودمياط والحسبة والشرطتين والعرض، والإثبات والنظر في الواجبات. »

وقد لقبه (بوزير الوزراء، ذي الرئاستين الآمر المظفر قطب الدولة) وعندما سمع مرة بمرضه، عاده في داره وحمل إليه هدايا جمة وهذا تشريف كبير لم تجربه قواعد التشريفات، كما دأب على مهاداته في مناسبات عدة تكريما له على إخلاصه للدولة، ووقوفه ضد معارضيها في الشام وفي مصر، وبرقة أيضا.

وقد قام علي بن جعفر بأداء مهامه بكل تواضع وعلى أحسن وجه، ضبطا للسير الإدارى وللنظام والأمن، ومراعاة لحقوق الخليفة، ومصالح المجتمع، فلم تغره السلطة العليا وثقة الخليفة، بالإستبداد والطغيان، شأن سلفه أمين الدولة الحسن بن عمار. ولم يخضع لضغوط عصبيته الكتامية، الذين كانوا يريدون الأضرار بالجند المشارقة، والإنتقام منهم، لما سلف من هؤلاء في حقهم، أثناء وزارة إبن عمار.

كذلك استمر على إخلاصه وولائه للحاكم بعد كراهية الناس له، وهروبهم من مصر، خوفا من نكاله وشذوذه الذي لم يقتصر على فئة دون أخرى، ولا على أهل ديانة دون الأخرى، حتى أخته ست الملك لم تنج من مقته، وعقابه، ومضايقاته الكثيرة لها، حتى وصل الى اتهامها في سلوكها. فسهل عليها مهمة التدبير لتصفيته فيما بعد، بواسطة كتامي آخر هو سيف الدولة ذو المجد بن حسين بن علي بن دواس.

ومبالغة الحاكم في القسوة وإسرافه في الشذوذ، وفي الشك في نوايا رجاله المخلصين قضى على كل أمل في إصلاح الأوضاع المتردية رغم جهود علي بن جعفر بن فلاح، الذي أحاطه الحاكم بالشك، وضيق عليه أنفاسه، ولم يسهل له الإستمرار في أداء المهمة، خوفا من قوة سلطانه، ومع أنه تحاشى قتله في القصر، أو بالقرب منه، فإنه أرسل إليه فارسين متنكرين في الطريق، فرماه أحدهما بالرمح، فجرحه وألجأه الى العودة الى داره، حيث لم يبق إلا فترة يسيرة ولفظ أنفاسه

الأخيرة 409 هـ/1018 للميلاد. وقد تولى تشييع جنازته والصلاة عليه ولي عهد المسلمين عبد الرحمن بن الياس، بمعية قاضي القضاة، من آل النعمان بن محمد بن حيون التميمي، مؤرخ الدولة الفاطمية، ومنظر حركتها المذهبية.

وحادث قتله ترك أثرا سيئا لدى الكتاميين ولدى زعيمهم في هذه المرحلة، سيف الدولة ذي المجد بن حسين بن علي بن دواس، الذي تحاشى الإجتماع بالحاكم في قصره، وكان حذرا منه، لا يرتاد المواكب الرسمية إلا وهو على صهوة جواده، خوفا من تآمر الحاكم عليه. وعندما استفسره الحاكم عن سر تصرفاته أجابه : « وقد قام في نفسي أنك قاتلي، فأنا مجتهد في دفعك بغاية جهدي، وليس لك حاجة الى حضوري في قصرك، فان كان باطن رأيك مثل ظاهره فدعني على حالي فإنه لا ضرر عليك في تأخري عن الحضور الى قصرك، وأن كنت تريد بي سوءا فلأن تقتلني في داري بين أهلي وولدي يكفونني، ويتولونني أحب الي من أن تقتلني في قصرك وتطرحني تأكل الكلاب من لحمي. »

وهذا الأمير الكتامي صار محورا لقصة التآمر على حياة الحاكم بمعية أخته ست الملك، وكل الغيورين على الدولة، والغاضبين عنه لتطرفه وشذوذه.

وعندما انتهى أمر الحاكم، وولى إبنه الظاهر لإعزاز دين الله الخلافة تحت وصاية عمته ست الملك، بادرت هذه بالإنتقام من إبن دواس فقتلته شر قتلة، لا لشيء سوى أنه

كان يعرف سرها الخطير، وحقيقة تآمرها على أخيها، ولأنه لم يكن يتوقع مكروها من جانبها، إطمأن إليها، فأخذته على حين غرة، وقتلته شر قتلة، وبقيت جثته في العراء ثلاثة أيام.

وهكذا انتهى بقتله عهد شيوخ كتامة وقادتها، كما انتهى بقتل علي بن جعفر بن فلاح، عهد الأبناء الذين جاءوا الى بيئة مصر والشام، شبابا أشداء. ولم يبق بعد هذين الجيلين من كتامة جيل الآباء، وجيل الأبناء، إلّا الأحفاد الذين ولدوا وترعرعوا في أرض مصر، وبلاد الشام. ومنهم أبناء حسين بن دواس، وأبناء جيش بن الصمصامة، وأبناء علي بن جعفر بن فلاح، وأشهرهم صفي الدولة، الشاعر الأديب، والي حلب من طرف الظاهر لإعزاز دين الله، منذ رجب 431 هـ/سبتمبر 1022 م.

وكان صفي الدولة شبيها بجده جعفر في الحزم وفي الشجاعة، وفي محبة الأدب والشعر ومعالجتهما، وهذا مألوف في بيئة حلب، التي شهدت ازدهار شعر الفروسية والحكمة والحب مع أبي فراس الحمداني وابي الطيب المتنبي.

خاتمة

1 ـ ومما سبق يتبين كيف أن فاتحة عهد أسرة إبن فلاح كانت مثل خاتمتها، تفوقا في ميادين الحرب، والسياسة، والأدب والشعر، والظرف والكياسة.

2 ـ كان جد الأسرة فارسا مظفرا في الحروب، وشاعرا مجيدا في حلبة البيان.

3 ـ وقد طوّف في الآفاق المغربية حتى أحواز طنجة وساحل المحيط، تمكينا للنفوذ الفاطمي، وإرهابا لقبائل زناتة ومكناسة وأمراء الأدارسة المحالفين للأمويين في الأندلس.

4 ـ وأخبار ظفره، وتوفيقه في الحروب وقوة شخصيته فشت الى درجة أن غدا، مع جعفر بن حمدون صاحب المحمدية، ممدوحين لمتنبيء الغرب محمد ابن هانيء، شاعر الخلافة الفاطمية، في عهد المعز لدين الله.

5 ـ واعتداد جعفر بنفسه، وهمته العالية وقيمته البارزة، عبر عنها بأجزال الهدايا والمنح للشاعر المادح، حتى لا يبدو أقل من جوهر في قيمة الهدايا.

6 ـ وعصبيته، وأهليته، وتوفيقاته قدمته ليكون رجل ميدان، وقائد أركان، في ميدان المشرق، الى جوار جوهر الصقلي، في قيادة أضخم حملة، هي الأخيرة والناجحة في فتح مصر، وفي ضمها نهائيا الى سلطان الخلافة الفاطمية.

7 ـ وأثناء هذه الحملة، وفي غمرة نشاطها برز دوره كرجل المهمات الصعبة والإستثنائية، وذلك عندما ظهر إصرار المقاومة المصرية على منع عبور رجال الحملة الى شاطىء النيل، فقد سبح مع مجموعة في النيل عراة، حتى الجانب الآخر، وأشعلوا الحرب ضد الكافورية والإخشيدية، وهزموهم شر هزيمة.

8 ـ وبعد انتهاء الفتح، ودخول الفسطاط عاصمة مصر التاريخية حتى الآن، برز دوره الى جانب جوهر، في تنظيم النواحي الإدارية والاقتصادية والإجتماعية والعسكرية في مصر، وكذلك في بعث المنشآت العمرانية الجديدة مثل الجامع الأزهر، ومدينة المناخ، القاهرة المعزية، التي غدت فيما بعد العاصمة السياسية للخلافة الفاطمية حتى سقوطها سنة 567 هـ / 1171 م.

هذا بينما انحسر نفوذ الفسطاط وبقيت فقط مركزا علميا وثقافيا، وتاريخيا، واقتصاديا.

9 ـ وبذل جعفر جهدا كبيرا في إقرار الأوضاع الأمنية في مصر، تعضده عصبيته الكتامية التي أسهمت بنصيبها في مختلف نواحي الإدارة المدنية والعسكرية.

10 ـ وحفاظا على مصر، وتأمينا لحدودها من أخطار محتملة من جهة الشام، التي غدت مركز تجمع أركان المعارضة للفاطميين، اتجه بناء على أوامر المعز، ونائبه جوهر الى إنجاز أكبر مشاريع الدولة في الشرق، وهو فتح بلاد

الشام، وكسر المعارضة، وإشاعة مظاهر السلطة الفاطمية الجديدة، في النواحي السياسية والعسكرية، والمذهبية والثقافية، مثلما جرى ذلك في مصر من قبل.

11 ـ وتنظيم الإدارة المدنية والعسكرية وبعث منشآت عمرانية جديدة والإهتمام بالجبهة الشمالية مع الروم، في منطقة الثغور، حراسة للمكاسب الجديدة، وإشاعة لجو الأمان والإستقرار بين سكان بلاد الشام ودمشق خاصة، أخذت حيزا كبيرا من اهتمامه، وأدرك فيها شأوا بعيدا، رغم الإستفزازات المحلية.

12 ـ وقد بنى لنفسه في دمشق، قصرا شامخا بالحجارة واتخذه مقرا. وظل عنوانا على السيادة الجديدة، وعلى الرفعة والذوق والشموخ، وهو الذي أوحي الى القرمطي بعد دخوله دمشق وقتله جعفرا إبن فلاح بقوله :

يا منزلا عبث الزمان بأهله
فأبادهم بتفرق لايجمع

13 ـ وفي دمشق، مركز ولايته، بذل مجهودا مكثفا لإقرار الأمن الداخلي، في إطار السيادة الفاطمية، بيد أن عناصر المقاومة المحلية : الأشراف والشطار والأعراب، والخارجية، البويهيون، والعباسيون، والروم، شاغبوه وناوشوه وأثاروا في وجهه مشاكل معقدة، ورغم توفيقه في أكثر من مرة، فإن انشقاق القرامطة الإسماعيلية، وتدخلهم ضد النفوذ الفاطمي في بلاد الشام، بالتحالف مع البويهيين والعباسيين أدى الى المواجهة

الحربية مع جعفر، وانتهت بقتله في ظروف مأسوية، فأصبح الميدان بعد ذلك خالصا للقرامطة ولحلفائهم.

14 ـ وقد وقع ما وقع، في ظرف كانت فيه علاقاته متوترة، مع المعز لدين الله، الذي أرجع اليه مراسلاته، ولم يتعامل معه مباشرة، ثم مع القائد جوهر في مصر أيضا، الذي كان يخشى بأسه وتطلعاته، ولهذا لم يطلب جعفر منه نجدة، ولم يتلق منه أية مساعدة، ولم يخرج جوهر، عقب الحادث للثأر، حتى فوجىء بهجوم القرامطة والأعراب، ضد القاهرة، حيث جرت معركة الخندق الحاسمة ضدهم.

15 ـ وعندما اتضح أن ظروف المعركة تقتضي إشراف الخليفة المعز بنفسه على سيرها سياسيا ومذهبيا، انتقل نهائيا من بلاد المغرب الى مصر. وتصدر المعركة وقادها بنجاح ضد القرامطة وأحلافهم. كل ذلك بالإعتماد على أولياء الدولة وأنصارها، خاصة عصبية كتامة، وأقرباء جعفر، وأبناءه وأحفاده : أبا محمود إبراهيم، بطل المتابعة والإنقاذ، وأبا تميم سليمان، وعليا بن جعفر، وإبنه تاج الدولة، وقريبهم جيشا بن محمد بن الصمصامة، وإبنه محمد ابن جيش.

16 ـ إنّ قائدا أمازيغيا ينطلق من المنصورية في تونس عبر مصر ليصل نشاطه الى أقاصى الشام حول الإسكندرونة لحرب الروم، هو نموذج خاص من القادة الإفذاذ، وأبطال الوحدة الرواد، الذين عودتنا بيئة المغرب الإسلامي على إنجابهم بين فترة وأخرى، لإدراك العظائم وتحقيق الأمجاد.

وطموحات جيليهم التي هي نفس طموحات جيلنا الآن في بعث كيان سياسي وحدوي، لتتكامل فيه شعوب المغرب مع شعوب المشرق سياسيا واقتصاديا، وثقافيا، واسترتيجيا.

واذا كانت هذه التطلعات التي وقف عليها حياته وترسمها بعده، أبناؤه وأحفاده، لم تتحقق على الوجه الذى أراده، في إطار سيادة الخلافة الشرعية في نظره وهي الخلافة الفاطمية، فحسبه وحسب آله ومحبيه، تلك الأعمال الجبارة المتواصلة، والإرادة الحديدية والإخلاص المتناهى للنظام، والتجند التام لخدمة الأهداف العليا للدولة، وللأمة في التحرر من الخوف، وفي الوحدة القومية العربية والإسلامية من سبتة الى ما وراء بغداد في مشارق الأرض الإسلامية.

17 ـ إن حياة هذه الأسرة الكتامية الأمازيغية، تصلح درسا قوميا وسياسيا، بليغا لكل مواطنينا خاصة عنصر الشباب، عن التوجهات القومية والتمسك بالإنتماء العربي الإسلامي، وعن الإلتزام الديني والمذهبي والثقافي للأمازيغ، بمايجمع الشمل، ويخدم القضايا الجوهرية للأمة العربية الإسلامية بدون فرق بين مشارق الأرض ومغاربها وبمايمتن عرى التضامن والتكامل، تمهيدا لحياة وحدوية حقيقية وشاملة، تكون درعا وغذاء لجميع العرب والمسلمين في أركان المعمورة.

تم بحمد الله وحسن عونه

المحتوى



د . موسى لقبال :

- أستاذ كرسي التاريخ الإسلامى جامعة الجزائر.
- رئيس المجلس العلمي لمعهد التاريخ.
- نائب المجلس الشعبي الوطني سابقا.
- عضو مؤسس لرابطة المؤرخين ولاتحاد الكتاب الجزائريين ولاتحاد المؤرخين العرب.
- حائز على شهادة تقدير في التاريخ بمناسبة الذكرى 25 للإستقلال.

هذه ملحمة تصور حياة أسرة كتامية ؛ رأسها أبو الفضل جعفر بن فلاح، الذي أسهم في حركة التوسع بهدف تحقيق الوحدة المغربية، واتسع نشاطه بمعية أفراد أسرته وقومه، عربيا، ففتح مصر، وبلاد الشام، ورنا ببصره نحو العراق ثم آسيا الصغرى حيث كافح الروم.

وكانت ثمار جهده، بناءً وحدوياً شمل بلاد المغرب ... ومصر، وبلاد الشام. وهذا البناء التاريخي، هو ماتتوخاه وتعمل لتحقيقه الشعوب اليوم في عالمنا العربي والإسلامي.

السعر : 23.50 د.ج

شخصيات لها تاريخ شخصيات لها تاريخ شخصيات لها تاريخ شخصيات لها تاريخ